

# الماركسية ليست فلسفة إنسانية ..

بقلم مجاهد عبد المنعم مجاهد

هذا المنهج بكل تفاصيله ...

الشحوب ، وعدم وجود الذهن المنطقية ، والنزعة العملية التي تحقر النظر المحض .. هو ما يجعل الماركسية مشكوكا في جدواها كفلسفة للإنسان ، وفلسفة للذهن الذي يريد ان يقتنع .. فلا يجد امامه الا مجموعة من التقريرات والافتراضات ..

وفي الحقيقة ، اننا نفاجأ بتعريف للماركسية بأنها مجموعة تعاليم ماركس .. ونفاجأ مرة اخرى بتعريف ماركسي آخر انها نظرة الحزب الماركسي اللينيني للعالم .. ولما كان التعريف الثاني يعتمد على تطبيق مبادئ نظرية من اجل العمل ، ولما كنا غير معنيين هنا بمناقشة الشئون العملية اولا لعدم اختصاصنا بالمجال السياسي والاقتصادي ، وثانيا لان ذهننا علاقته بالعمل علاقة عكسية ، فكلما اشتدت المشكلة في تجريدنا ، اقتتنا بالموضوع .. بينما المشكلة على الصعيد العملي ينفر منها الذهن الذي يرى الفكر اشبه بلعبة الشطرنج .. ليس امامه الا اللعبة .. اما ماذا بعد اللعبة فهو من شئون الارضيين - اقول لما كنا غير معنيين هنا بمناقشة الشئون العملية ، فسنأخذ التعريف الاول القائل بان الماركسية هي مجموعة تعاليم ماركس .. ثم نقتطع منها ذلك الجزء الخاص بالفلسفة الذي يعنيها ، باعتبار ان الفلسفة هي ارقى اشكال الفكر التي اكتشفها الذهن المغرم بلعبة التفكير ..

وتزداد المفاجأة اننا نرى التعريف الماركسي للفلسفة بانها class فلسفة طبقة فلو كان هذا صحيحا - ولنفترض مؤقتا ان هذا صحيح - فستعد الماركسية فلسفة طبقة .. هي طبقة البروليتاريا كما يزعمون .. ولكن ماركس ليس بروليتاريا حتى تكون فلسفته انعكاسا للطبقة المنتمي اليها .. فلو قلنا انه تمثل هذه الطبقة وعبر عنها بفلسفة ، لكان هذا التمثيل ذاته مرفوضا : مرفوضا لان الانسان لا يمكن ان يعرف معرفة يقينية ما يريده فرد اخر .. فما بالك ومعرفة ما تريده طبقة بأكملها ..!! ولان الانسان لا يمكن ان يستوعب افكار واتجاهات طبقة بأكملها ، لانه لو درسها عيانيا Concretely فسينهي حياته دون ان ينتهي .. واذا تبني افكارها على اساس دراسة عامة ، وقع الماركسي في التجريد ، والماركسيون لا يؤمنون بالتجريد ..

ولنمش معهم حتى نهاية الشوط ، فلننتصروا - كما يذهبون - ديكرت Descartes مثلا كان تعبيراً عن

تعاني الماركسية من وهم شديد يجعلها وربما خبيثا بالنسبة لتكوين العقل الحديث .. هذا الوهم هو تلك النزعة الوثوقية التي تتحدث بها في اية قضية تتصدى للانخراط بالحديث فيها .. ولان ماركس يتصور نفسه كاله واقف خارج التاريخ والكون والانسان يلم بكل كبيرة وصغيرة .. وراحت الماركسية تدلي بالحلول وتجب عن كل سؤال دون ان تضع فلسفتها هي يوما ما موضع التساؤل .. اولا لنزعتها الوثوقية ، وثانيا لانها تظن - كما ظن هيغل عن نفسه من قبل - انها هي الفلسفة الوحيدة الحققة ، وكان في الفلسفة يوجد حق ، ويوجد مذهب مقنع ووحيد !! وتزعم انها القادرة على التكلم باسم الانسان وباسم العقل والعلم ، رغم ان الانسان لم يخولها الدفاع عن عقله ، لانه اكتشف فيها مبالغة بالتمسك بالعقل ، واكتشف فيها افراطا بالتمسك بالعلم رغم ان العلم نفسه يجب ان يوضع موضع التساؤل ..

ولكن .. هل الماركسية اصلا فلسفة وهل يمكن ان يعد ماركس فيلسوفا ؟ اما بالنسبة للسؤال الثاني فنحن نشك في هذا .. ذلك لان ماركس - وقد نوه بهذه الحقيقة لينين - كرس حياته لدراسة الاقتصاد السياسي .. ولهذا لا نجد من مؤلفاته الفلسفية الا رسالة الدكتوراه التي قدمها عن « ابيقور » ولم يكن في هذه الفترة ماركسيا ، بل كان هيغليا يساريا لم يتبلور بعد ماركسيته .. وكذلك لا نجد الا ملاحظاته الضئيلة عن فيورباخ Feuerbach

فاذا اخذنا بمنطق الماركسيين من ان الماركسية ليست نظرية فرد ، بل هي نظرية حقبة كاملة ، وادخلنا في اعتبارنا كتابات صديقه انجلز ، لوجدنا ان هذه الفلسفة لا تسير بطريقة منهجية Systematic فالكتابات الفلسفية ضائعة وسط « فيورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية » « جدل الطبيعة » ، « الرد على دورنج » ..

فاذا كانت الماركسية لا تأخذ بالحلول المثالية ، افما كان الاجدر بها - ان ارادت ان تكون فلسفة متكاملة حقا - ان ترد بنفس الطريقة المنهجية التي يكتب بها المثاليون؟! ففي الجدل Dialectic مثلا - وهم يردون على هيغل - نجد انهم لم يكتبوا الا بضع صفحات وفقرات مبعثرة في هذا الموضوع ، بينما نجد هيغل قد كتب باستاذية - سواء اتفقنا معه ام اختلفنا - كتابا ضخما تحت عنوان « علم المنطق » Science of Logic يشرح فيه رايه في

نشوء الحركة البورجوازية وانه المعبر عن الايمان بالعقل ضد سلطان الكنيسة ومدرسة ارسطو الرجعية .. ولنسلم بهذا التفسير .. فنسكون في الحقيقة قد فسرنا الديكارتيّة Cartesian لكننا لم نفسر ديكارت .. بمعنى اننا فسرنا كيف تكونت الديكارتيّة داخل المجتمع ، لكننا لم نفسر توصل ديكارت - باعتباره هذه الديكارتيّة بالذات دون بقية خلق الله - الى هذه الفلسفة .. امامنا طريقتان : اما انه توصل بعقريّة فردية فريدة ، واما انه توصل بطرف اجتماعية .. فلو كان بطرف اجتماعية - وهذا هو رأي الماركسية - اذن فلا فضل لديكارتيّة في ديكارتيته .. وكان من الممكن ان يقول نفس كلامه اي صعلوك يقرأ في عصره ، وما كنا في حاجة الى كلمة ديكارتيّة ، وكنا نقول : الفلسفة الصعلوكية نسبة الى هذا الصعلوك القارئ .. ولو كان قد توصل بعقريّة فردية لانهدم التفسير الماركسي .. وذلك لسبب اخر : وهو ان مايجري في داخل ذهنية اي انسان سر مستفلق بين الفرد ونفسه .. بل ان الفرد نفسه لا يمكن ان يعي عملية ذهنه من جراء ان التفكير نفسه سر .. ومن هنا فمصير اي مدرسة في علم النفس هو الفشل التام حيث تأبى الذاتية ان تخضع لمشرط الموضوعية المزعوم ..

فماذا يريد ماركس للفلسفة ؟ ان ماركس يريد ان يذبح الفلسفة على يديه .. انه يريد ان يحولها من مذهب الى منهج .. يريد ان يحولها من مذهب System يقرر مجموعة من القضايا حول الانسان والعالم والمصير ، الى منهج Method يرسم طريقا للتفكير .. فماذا فعل هو ؟ لقد راح يدلي بمجموعة من اقوال عن الانسان والعالم والمصير !! فكان ان طلق الفلسفة مذهبا لا منهجا .. حدث هذا رغما عن ماركس ، وكان لا بد ان يحدث هذا .. اولا لانه مامن فلسفة ، الا وهي تقرر مذهبا حتى ولو زعمت الرغبة في العكس ، لان هذه الرغبة نفسها مذهب يعكس وجهة نظر في الانسان والعالم والمصير .. وثانيا لان ماركس اراد ان ينفي عن فلسفته الطابع البراجماتي Pragmatic .

ذا النظرة الجزئية في كل موضوع على حدة ، ومن ثم فيمكن للمرء ان تتكون له شتيتات من الافكار ولا تناقض بينها ، فراح يدلي باقوال فيها من الوحدة الفكرية ما يكشف عن مذهب يدلي باقوال عن الانسان والعالم والمصير ..

لقد قرع ماركس الناقوس ليعلم للاخرين انه قد حان الوقت لكي تطرح الفلسفة عن نفسها مهمة التفسير ، ولتكون وظيفتها التغيير .. فكان ان ادلى بفلسفة قائمة على التفسير .. لانه ما من تغيير يمكن ان يحدث للافكار داخل الذهن .. لان جميع الافكار على مستوى واحد .. وذلك لان التغيير - وماركس يريد بالطبع الترقى الى الاعلى - لا بد ان يكون تغييرا بالنسبة لشيء ادنى .. وفي الفكر لا يوجد ادنى ولا ارقى ، لان هذا سيجعلنا نستند الى معيار خارجي ، يحدد الادنى والارقي .. فآين هو هذا المعيار ؟ وهكذا تكون النتيجة ان ماركس نفسه لم يسمع

حتى ناقوسه !!

## ١ - منهج ماركس الميتافيزيقي !

هل الانطولوجيا Ontology - علم الوجود بما هو موجود والنظرة الكلية للعالم - عند الماركسية سابقة ام نظرية المعرفة ؟ مما لا ريب فيه ان التحدث عن اي منهج انما يحمل بذور انطولوجياه .. بمعنى ان الانسان سيكون ميتافيزيقيا حتى وهو يشتغل في حقل المنهج ، بل وحتى لو كان هذا المنهج علميا كما في الفيزيكا مثلا ؟ ومن هنا يمكن القطع بان العلم نفسه هو بمعنى ما من المعاني علم ميتافيزيقي ..

فاذا كان الامر هكذا ، كانت الانطولوجيا في الفلسفة الماركسية سابقة على منهجهم الجدلي .. لكن لما كانوا يرون ان فلسفتهم هي منهج ، وان بفلسفتهم تنتهي المذاهب ليشع على العالم عصر المنهج الوحيد : الجدلي الماركسي ، فسوف نبدا فنطرح هذا المنهج ثم نتصدى لناقشته ..

والان نحب ان نتساءل : هل توصل ماركس الى الجدل بفكر جدلي ام بفكر استاتيكي ؟ هل عندما صدرت الماركسية عن ماركس كان ماركس ماركسيا من قبل ؟ ام لم يكن صاحب ذهن جدلي فتوصل الى منهج يقضي على نوعية فكره ؟

فلنؤجل القضية قليلا ، ولنبحث اولا في الجدل

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من

# سَارْتَرُ وَالْوَهْودِيَّة

كتاب لا بد ان يقرأه كل من يريد ان يفهم آثار سارتر

تأليف

ر. م. البيريس

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

مَنَوَاتُ دَارِ الْاَدَابِ - بَيْرُوتُ

الماركسي: نجد انه مجموعة قواعد ، كذلك القواعد المرصوفة التي يمكن ان يرصفها ذهن متوسط كذهن ديكرت ، او ذهن محدود القوى كذهن بيكون ، او ذهن ذو مقدرة على التصنيف كآرسطو .. بل ان هذه القواعد نفسها لاجدل فيها !!

ولكن ، كيف اتيج لماركس ان يدرس ظاهرة الجدل ؟ لقد اكتشف هيرقليطس Heraclitus الجدل في اليونان القديم ، لكن هذا الجدل - في رأي الماركسيه - ادرك عن طريق حدس صوفي ، ولهذا فهو لم يتصف بالتفسير التفصيلي وذلك لان الواقع في اليونان القديم لم يتطور التطور الكافي ليضع شروط الجدل .. فاذا كان الواقع اليوناني القديم لم يتطور هذا التطور الكافي فكيف تسنى لهيرقليطس ان يضع جدله ؟ بالحدس كما يقول الماركسيون .. انهم لم يستعملوا الكلمة وانما استعملوا لفظة بعقريسة فريدة .. وهذا يساوي الحدس .. لكن الحدس ضد الماركسيين .. فكأنهم فسروا الجدل القديم بطريقة تظن جدلهم هم ..

لو لم يوجد هيجل لما وجد الجدل الماركسي .. هم يسلمون بهذه الحقيقة ، لكنه تسليم الخصم .. بمعنى انهم يقولون وهذا هو ما اكده ماركس في « رأس المال » اننا أمسكنا بهيجل الذي كان يمشي على رأسه ثم عدلناه .. ونحن نحبان نذكر الماركسيين بذلك الرسام الايطالي الذي ظل مستلقيا على ظهره اربع سنين كاملات يرسم سقف الكنيسة فلما هبط الى الارض واقفا على قدميه رأى الاشياء جميعها مقبوبة .. وربما كان ابتعادهم عن هيجل ، ومداومة هذا البعد تحت تأثير جناح الهيكلية اليسارية « فيورباخ ، شتراوس Straus ، بوير Bauer هو الذي ادخل في ذهن ماركس ان هيجل مقلوب ، فاراد ان يعدله .. كيف تسنى له وبرهن على خطأ هيجل في منهجه ؟ ليس هناك برهان ولا ادلة .. بل هناك تقرير وافترض .. الجدل عند هيجل قائم في الذهن له قوانينه .. واذا كان العالم جدليا فذلك لان الذهن جدلي ، ولان العالم عند هيجل انعكاس للجدل الذهني .. فالعالم تخلقه الفكرة التي تريد ان تعبر عن نفسها في التاريخ ، لكي تتوحد في النهاية مع نقيضها وتصبح الفكرة المطلقة ..

يبدأ هيجل السير من الفكرة الى الوجود مقررا .. فجاء ماركس ليبدأ السير من الوجود الى الفكرة مقررا .. فاذا كان الفكر جدليا فذلك لان الواقع جدلي .. ومن هنا فجدل هيجل جدل مثالي ذاتي ، لانه نابع من الفكر ، بينما جدلهم هم - في رأيهم - جدل مادي موضوعي لانه يبدأ من الواقع .. فمادية الجدل ترجع عندهم الى البدء من الوجود الخارجي بدل الذهن .. وفي هذا دليل كاف على اقحامهم للميتافيزيقا في منهجهم وهو ما ذكرناه من قبل .. فالنظرة الانطولوجية هي التي تفسر منهجهم هكذا .. ولما كانت كل انطولوجيا هي موقف ميتافيزيقي ، وكانت الانطولوجيا فارضة نفسها على الجدل عندهم ، كان الجدل مشعبا وشاربا من دم الميتافيزيقا ..

لقد وحدوا بين الماركسية وبين اكتشاف قوانين الجدل المادي .. ولما كانوا هم تائرين على الميتافيزيقا ورايينا تشربية الجدل للميتافيزيقا ، افلا يمكن ان نرى انهيسار الماركسية ذاتها كفلسفة ؟!!

لكن ماهي قوانين الجدل ؟ انها اربعة كما لخصها ستالين في « المادية الجدلية والمادية التاريخية » :

١ - ما من ظاهرة ، الا وهي مترابطة مع غيرها من الظواهر .

٢ ما من ظاهرة الا وجوهرها الحركة والتغير .

٣ - التغير ناشيء عن تراكمات كمية تؤدي الى تحولات كيفية .

٤ - هذا التغير يحدث نتيجة صراع المتناقضات داخل الشيء ..

لقد ارتأت الماركسية انها ثورة على منطق آرسطو الشكللي formal ، لكنها تنحدر من حيث لاتدري الى شكلية آرسطو : يقوم منطق آرسطو على قانونين هما :

١ - قانون الذاتية identity وقانون عدم التناقض contradiction .. فالشيء هو هو ، وليس ما ليس هو ..

ويفسر الماركسيون هذا المنهج الارسطي على انه يتعامل مع الاشياء ، ولا يتعامل مع العمليات processes .. لكن فلنتصور اية عملية متغيرة : الا تبدأ من الاشياء وهي تتغير ؟ فكأننا مضطرون ان نتحدث داخل العملية عن قانون للذاتية الذي يريد ان يهدمه الماركسيون ويقولون بدله : في طريقها الى ما ليس ؟ لكن داخل هذا التغير نفسه الا تظل ؟ هي ؟؟؟ وحين اعترض على الماركسية وقيل لهم ان نابليون لا يمكن الشك في انه مات في يوم معين بالذات ، وهذه حقيقة سكونية ، سلم انجلز وقال ان المنطق الشكل لا يطبق الا على الاشياء البسيطة .. بينما العمليات المعقدة محتاجة الى المنهج الجدلي .. فكان الماركسية قسمت العالم شطرين : شطر معقد يحتاج الى الجدل لتفسيره ، وشطر بسيط يحتاج الى المنطق الشكللي لتفسيره .. فكان هناك نوعين من الظواهر يعملان جنباً الى جنب : ظواهر جدلية ، وظواهر سكونية !! .. فكيف سنقرر رأي منطق نحن سنحتاجه في دراسة الظاهرة ؟ وهل سنقرر الاختيار وفق المنطق الشكللي ام وفق المنطق الجدلي ؟ وكيف سيكون العالم متناسقا ، ذلك العالم الذي تعيش في داخله ظواهر من طبيعتين مختلفتين والذي يضم منطقتين متباينين ؟

ولبنداً مناقشة الجدل الماركسي من نقطته الرابعة .. لماذا سلم الماركسيون بوجود التناقض داخل الاشياء اصلاً ؟ لقد فعلوا هذا حتى يحلوا ظاهرة التغير الموجودة في الكون .. لم يتساءلوا عن زيف الظاهرة اصلاً بل افترضوا منذ البدء صحتها وحاولوا تفسيرها عن طريق قانون الاشياء باطنها التناقض .. هي موجودة وليست موجودة .. قائمة ولن تقوم .. وذلك على اساس ما أسموه بوحدة الاضداد .. فكل شيء يكون في حالة سكونية نتيجة التوازن بين عنصر

تناقضه .. ثم هو يتغير اذا طرا عليه مؤثر خارجي يحدث في العلاقة التوازنية بين الاضداد عنصرا هادما فتتحل العلاقة لتبدأ وحدة اضداد جديدة تكون مؤقتة .. ولهذا فعند الماركسيين، كما عبر لينين في «الكراسات الفلسفية» ان وحدة الاضداد شرطية زمانية متحولة نسبية ، وصراع الاضداد الطاردة بعضها بعضا بالتبادل مطلق ، مثله في هذا مثل التطور والحركة فهما مطلقان .. ولكن كيف احتوى الشيء هذه الطبيعة القائمة على التناقض ؟ : هل من داخله ام من خارجه ؟ يقولون انه تناقض من داخل الشيء ولكن لماذا كان الشيء هكذا ؟ سيتمسحون في انهم مفسرون فحسب ، لكنهم يقولون ان مهمتهم التغيير .. انهم لا يعللون .. ولماذا يحدث في تلك اللحظة الجزئية وحدة الاضداد ان كان قانون التناقض هو القانون المطلق ؟ واذا كانت هناك وحدة اضداد فما هو العنصر الذي يحفظ هذه الوحدة ؟ ان يعد عاملا ثالثا داخلا بين النقيضين ؟ ثم ان التغييرات تحدث نتيجة التراكمات الكمية quantitative التي تحدث تغيرات كيفية qualitative .. وذلك عندما

تصل هذه التراكمات الى تلك اللحظة التي سماها هيجل «باللحظة الفاصلة» Nodel point .. فلماذا يحدث التغير الكيفي عند هذه اللحظة بالذات ؟ وكيف يتسبب التغير الكمي العددي الرياضي ذلك المظهر الكيفي الدلالي المعنوي ؟ لانني مهما تراكمت الارقام حتى تصل الى مليون فلن يتبادر الى ذهني ان هذا التراكم سيحدث لي تفاحا مثلا !!

ثم ، ان هناك اعتراضا اخر: فان كل تراكم كمي يؤدي الى تحول كيفي ، يسبقه حتما شكل كيفي ، لان العالم كيف قبل ان يكون رياضة وعددا .. فكيف سنفسر الكيوف الاولى ؟ هل سنردها الى تراكمات كمية ؟ الى ماذا ؟ اليس الى كيوف ؟ وهكذا نقع في تسلسل نتيجة ان هذه القاعدة المنهجية الجدلية الماركسية لم يحفر الماركسيون تحتها حتى يبينوا صوابيتها من خطئها ..

قد نسلم معهم بتشابكية الظاهرة مع غيرها من الظواهر وعدم دراستها جانبية الاحد one-sidedness ، ولكن هل يرجع تغيرها الى تناقض قائم فيها ؟ ان سألناهم البرهنة قالوا : هذا هو الواقع .. فما الجدول المادي الذي جئناكم به الا محكمة الطبيعة التي هي جدلية ، فهل الطبيعة والعالم الخارجي جدليان حقا ؟

لقد ذهب الماركسيون الى ان التفكير نفسه داخل الذهن يتخذ شكلا جدليا .. وسنحترس ونقول لهم : انلن يكون احيانا التفكير داخل الذهن نفسه شكليا في بعضه ، جدليا في بعضه ؟ فان تخطينا هذا السؤال وسألناهم : وكيف تتم هذه الطريقة الجدلية في الذهن ، سارع ماوتسي تونج بكل جهله بعلم النفس في كتابه « في الماركسية » وقال : ان التفكير يمر بمراحل ثلاث : الانحساس sensation ثم نقيضها التصور conception ثم الافكار Ideas وذلك على اساس قاعدتهم : التراكمات الكمية تؤدي الى تحولات كيفية .. فاذا سألت ماوتسي تونج : ومتى بالضبط يحدث التحول من مرحلة الى الاخرى ؟ تمسح

في عذر يعد اشنع من جهله بعلم النفس وقال : ان كل مرحلة تقتضي الدراسة النوعية والكشف عن قوانينها الجدلية الخاصة بها .. فاذا كانت كل مرحلة محتاجة الى دراسة نوعية ، فكيف تأتي له ان يتحدث - وهو يزعم ان هذه دراسة مستقراة من الواقع - ويعمم مادام لم يدرس الظواهر دراسة تفصيلية ؟

ان الماركسيين مغرمون بتمشيم المنطقي مع انفسهم حتى لو كان هذا التمشي ضدهم !! فهم يقولون : «ان منهجهم الجدلي كان يتطور وسوف يتطور ويترقى بطريقة جدلية .. فاذا سألت سؤالك الخالد : كيف ؟ لم تحك منهم الا ثلوج صمتهم حاملة اليك الجهل ... وحاملة اليك الميتافيزيقا التي تسلت الى منهجهم من غير ان يشعروا بحكم ان الميتافيزيقا نظرة انطولوجية لاتدليل عليها قائمة في ذهن اصحابها ..

## ٢ - انطولوجيا أرسطية !!

كنا قد اجلنا سؤالنا : هل كان ذهن ماركس جدليا ساعة ان اكتشف قوانين الجدل ؟ نؤكد ان ماركس كان يعيش على حس المنطق بالشكل الارسطي .. ومن هنا كان ماركس ارسطي النزعة ساعة ان تحدث عن جدله .. ومن هنا لم يكن ماركسيا ولن يكون .. بمعنى ان جدله نفسه الثائر على المنطق الارسطي ، هو نفسه نتاج ذهن ارسطي ... فالمنهج كما ذكرنا من قبل ، مشبع بنظرة ميتافيزيقية ، لان الانسان هو الميتافيزيقا ..

# فتاة في المدينة ..

مجموعة اقصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

صدر حديثا

دار الاداب

الداخلية .. فاذا انحلت وحدة اضداد ظهرت حالة جديدة للمادة قائمة على وحدة الاضداد ثم تحدث عملية نفسي اخرى .. ومن ثم يمكن ان تتحول المادة الى اشكال مختلفة على اساس حركتها الدائبة ..

الا انه وفق المنهج نفسه ، الا بد من وجود السكون مقابل الحركة داخل المادة والا لما امكن حدوث الحركة اصلا ؟ لكن هذ سيؤدي الى وجود مادة ساكنة .. وهذا هو ما يرفضه الماركسيون ، مما يؤدي بنا الى انهم تصوروا العالم وفق منطق شكل يصنف ويرصد ويقرر ..

لقد ذهب الماركسيون الى ان هذا المفهوم للمادة لم يأتوا به دفعة واحدة ، وصلوا اليه بعد تطور العلم وظهور نظرية التطور واكتشاف الخلية الواحدة ونظرية تحول الطاقة .. وذلك ليبرروا جدلهم الذي كان اصلا مقمرا لا وفق تطورات العلم ، بل وفق نظرتهم الانطولوجية المفترضة .. فذكروا ان المادية في العالم القديم مادية صوفية قائمة خارج الذات فحسب ، تطورت الى مفهوم للمادة ميكانيكي يفترض حركة المادة من خارجها ثم تطور المفهوم الى المادية الجدلية التي تقرر الحركة من داخل المادة نفسها ..

ولكن .. الا يبدو من هذا ان المادة في حد ذاتها غير معروفة؟! انها تعرف في التاريخ حسب رأيهم ، فاذا كان الامر هكذا ، فما هو الشيء الذي سيجعلني اقبل الموقف الماركسي على انه التفسير السليم والوحيد للمادة؟!

اذن عملية نفي النفي negation of negation

لمفهوم المادة عندهم كما وضحوه يرتد الى اعناقهم .. خاصة انهم عندما يريدون ان يبرهنوا على صوابية تفكيرهم يعتمدون على الواقع العملي .. مع انني في الواقع العملي يمكن ان استمد منه الشواهد على اية قضية وعلى عكسها .. وفي هذا تحقير شديد للجانب النظري المحض الذي يفتقر اليه الماركسيون .. ماهو التبدليل على ان هذه المادة التي يتحدثون عنها قائمة خارج الذهن ؟ ولماذا لا يكون هذا وهما فرضه الذهن بحيث يضلني ويصور لي وجودا خارجيا للمادة ؟ بل لنفرض ان هذه المادة تكتسب كل صفة موضوعية ، فلم لا تكون هذه الموضوعية قائمة في حلم انسان ؟

ان الانطولوجيا المادية الماركسية هي نفسها انطولوجيا مثالية .. فلنتصور ان المادة حقا متحركة وان حركتها ذاتية .. اذن ففي العالم القديم كانوا يتعاملون مع مادة هذه طبيعتها بمنطقهم الذي يعتبر المادة حركتها مفروضة من الخارج : من الكائن الواقف خارج الكون والذي بث في العالم الحركة عند ارسطو والله الذي بث الحركة الاولى للمادة عند نيوتن .. فلماذا لم يحدث تدمير لهذه المادة مادامت معاملتها كانت خاطئة ؟ بل ان التفسير الماركسي يعتبرونه حلقة من حلقات التفسير للمادة .. فكان المادة في حد ذاتها شيء مجهول ، وكان المفهوم الماركسي خاطيء

- التتمة على الصفحة ٧٧ -

بل ان هناك كلاما لانجلز حول مشكلة الانطولوجيا تكشف عن الموقف الارسطي داخل الماركسية .. فقد قسم انجلز الانطولوجيا قسمين : نظرة مادية تبدأ من الواقع ، او نظرة مثالية تبدأ من الفكر .. اما ان تكون ماديا واما ان تكون مثاليا .. فقاعدة « اما .. واما » التي يعتمد عليها المنطق الشكلي والتي يرفضها ماركس ، يقبلونها عندما يتحدثون عن الانطولوجيا ..

وعلى اساس هذه الـ « اما .. واما » يسارعون باختيار الجانب الاول .. لماذا ؟ انهم لا يبرهنون الا بحس الرجل العادي ويفعلون تساؤل الذهن المغمم بلعبة تفكيره والذي يطالب دائما بالتبدليل النظري .. لانه سيرد قائلا : ولماذا لا اختار الجانب المقابل ؟ اذا كان ديكارت - بعقله المتوسط - قد شك في وجود العالم الخارجي وأثبت آتيته ، فاني يمكنني ان اشك في هذه الانية نفسها بحكم انني ربما كنت الان في لحظة حلم .. فاذا امكن ايصال الشك الى هذه الدرجة ، اما كان الامر يقتضي من الماركسيين ان يدللوا ان ارادوا لنظريتهم اقناعا ؟

ان العالم عندهم كان ولم يزل منذ الازل وسيظل الى الابد شعلة حية لم يخلقه احد .. انهم يستمدون كلامهم من فيلسوفهم الغامض هيرقليطس .. وعلق لينين على كلامه بأنه ياله من شرح رائع للفلسفة المادية !! لقد استحالت كلمات هيرقليطس الشاعر النابغة من ضبابية تفكير لا يؤمن بالوضوح لان اية قضية لاحتجاج الى وضوح ، استحالت الى فلسفة يتبناها ماركس .. وسينشأ السؤال التقليدي : ولكن من اين استمد هذا العالم وجوده ؟ هنا فاجأ من جديد بثلوج صمتهم .. ولكننا سنفاجئهم بدفء ثرثرتنا : وسنثرثر وفق منهج الجدلي : لقد آمنوا بالتناقض .. فاذا كان الوجود موجودا ، اما يقتضي ايضا وجود العدم Nachingreas لكن التحدث من وجود للعدم فيه تناقض ، كما ان افتراض عدم للوجود يقتضي حدوث صيرورة بين الوجود والعدم ، وهذه الصيرورة تفترض وجودا سابقا من قبل .. وهكذا قد تقبل صيرورة المستقبل ، لكن صيرورة الماضي نفسها غامضة بلا تفسير ..

بل علينا ان نلاحظ جيدا ، لان الامر سيرتبط بعد هذا بمشكلة المعرفة ، ان التحدث عن المادة الاولى فيه شيء مجهول عندهم .. ولهذا فهم يقررون ان المادة كانت وستظل الى الابد .. وبمعنى اخر يهربون من ذلك العنصر المجهول الذي لا يجدون لديهم الشجاعة الكافية لكي يواجهوه .. فما طبيعة هذه المادة ؟ التحرك .. فلا مادة بدون حركة كاستحالة تصور حركة بدون مادة .. وها هنا نجد دورا منطقيا .. فالعالم جدلي لان الجدل يطلعنا الامر هكذا ، ويجب ان نلجأ الى الجدل لان العالم جدلي .. مع ان احدي المقدمتين لم تثبت بعد ..

لكن هذه الحركة للمادة من اين جاءت ؟ منذ الازل !! فالمادة الاولى وجدت متحركة .. فالحركة لاتنضاف الى المادة من الخارج ، بل هي نابعة من داخلها بحكم تناقضاتها

## الماركسية ليست فلسفة يونانية

- تنمة المنشور على الصفحة ٢٢ -

بمعنى ما من المعاني لانه ما الضامن على انه هو التفسير  
السليم ؟

### ٣ - المجهول يقضي على كل معرفة !!

لقد تسلسل الى موقفهم الانطولوجي موقفهم في نظرية  
المعرفة .. ونحب ان نسارع فنقول : ان نظرية المعرفة في  
اية فلسفة ان هي الا انطولوجيا .. وعلى هذا ففصلها  
ايضا عن الانطولوجيا وتمييزها ان هو الامر خطأ ..  
فالتساؤل حول طبيعة المعرفة وادائها وامكانها ان هو الا  
تساؤل يحمل دلالة انطولوجية ..

ونحب ان نقول في البدء ان الماركسيين يرتكبون خطأ  
لم نر له مثيلا في تاريخ الفكر .. فهم يوحّدون بين المنطق  
والجدل والمعرفة .. فلنترك عملية توحيد المنطق والجدل  
.. لكن التوحيد بين المنطق والمعرفة هو الامر الذي لا يستقيم  
.. لانه فارق بين ان اتحدث عن كيفية التوصل للمعرفة  
والتحدث عما اذا كان تحدثي عن هذا يتخذ شكلا منطقيًا  
متسعا لاتناقض بين عناصره ام لا .. بمعنى اخر ، ان  
المنطق هو الة لبقية فروع المعرفة .. ليس آلة بمعنى  
التحقير والثانوية ، بل بمعنى انه ارقى شكل ابدعه الذهن  
لانه العلم الوحيد الذي لاحديث مطلقا عن اي علم مالم  
يكن هو في المقدمة مؤسسًا منذ البداية دعائمه ولانه العلم  
الوحيد الذي لا يحتاج الى اي علم خارجه ..

المعرفة عندهم جزئية نسبية زمانية ، لكن الحقيقة مطلقة  
عامة لازمانية .. فاي تناقض داخل هذه العبارة !! اذا كانوا  
يرون ان الحقيقة مطلقة عامة لازمانية ليست هذه الرؤية  
خلال معرفة جزئية نسبية زمانية ؟ كيف للجزئي ان يحكم  
بما هو كل مطلق ؟! ان التعبير ذاته انما يرتد الى ذاته ،  
فكانهم قالوا من حيث لا يدرون : ان الحقيقة نسبية جزئية  
زمانية !!

ومن جهة اخرى اذا كانت المعرفة جزئية نسبية زمانية  
افلا يترتب انه لا يوجد حق ولا توجد حقيقة ؟ وبالتالي ان  
تعريفهم للمعرفة نفسها انما يلغى الانطولوجيا عندهم ، لان  
العالم المادي الخارجي لن تكون له الموضوعية التي ينسبونها  
اليه ..

ومن جهة ثالثة ، اذا كانت المعرفة جزئية نسبية زمانية  
فمعنى هذا انه سيبقى عنصر مجهول لا يمكن معرفته ..  
هم يعترفون بهذا ، لكنهم يقولون اننا سننتقل من الشيء  
في ذاته thing-in-itself المجهول الى شيء لنا معلوم  
thing-in-us .. لكن هذه الانتقال نفسها انما

هي اعتراف بالعنصر المجهول في المرحلة السابقة ، ثم هو  
سيتسلسل الى المرحلة الجديدة ، باعتبار ان المرحلة الجديدة  
ستعتبر شيئًا مجهولًا في ذاته بالنسبة لمرحلة جديدة  
اخرى ..

ومن جهة رابعة ، اذا كانت المعرفة جزئية نسبية زمانية  
فقد نسبوا للعقل القدرة المطلقة على التوصل الى ازاحة  
الكشف عن المجهول .. مع ان هذا العنصر العقلي نفسه  
الا ينتقل هو نفسه من شيء مجهول الى شيء معروف ؟!  
هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد منحوا العقل مقدرة اكثر  
مما له .. مع ان اعترافهم بوجود عنصر المجهول ان هو  
الا دلالة على قصور العنصر العقلي الذي لا يستطيع ان  
يكشف في لحظة واحدة ..

ثم ان هذه التفاؤلية المتطرفة هي التي توجه الخنجر الى  
الماركسية .. لانك اذا قلت للعقل انك ستتاح لك ان تعرف  
كل مجهول ، فلن تتوافر لديه الحوافز لاستكناه المجهول ،  
بينما الاعتراف بان هناك عنصرا مجهولا سيظل لن يقدر  
للعقل ان يكشفه سيدفع العقل الى اكتشافه حتى وهو يعلم  
انه لن يصل .. فالذي يأمل الكشف وهو يعرف انه يأمل  
بسرعة اليأس ، افضل من الذي ييأس من الكشف وهو  
يعرف انه ييأس بسرعه الامل ..

ثم ان التفسير الذي يتغير كل لحظة الا يدل على ان  
الكون نفسه لغز لا يقبل التفسير ويند عن العقل ؟ وعلى  
هذا يتسلسل العنصر اللاعقلي الذي ينكره الماركسيون  
ويهملونه ..

تم بحكم منهجهم الجدلي انقائل بوجود التناقض ، يجب  
ان يعترفوا بوجود هذا العنصر اللاعقلي .. فاذا اعترفوا  
بوجوده - ويجب ان يعترفوا بوجوده بحكم منهجهم نفسه -  
افلا يكون هذا العنصر اللاعقلي هدمًا لكل مذهبهم المعتمد  
على العقل ؟

ولقد ربط الماركسيون بين المعرفة والحرية : فقد  
ذكر الماركسيون ان الناس لا يولدون احرارا بل يكتسبون  
هذه الحرية في صراهم ضد الطبيعة والمجتمع وهم  
يتعرفون على قوانينها .. ولكن ليس هذا الصراع يقتضي  
من البدء ان يكون الناس احرارا ماداموا قد اختاروا الصراع  
بدل الاستسلام ؟ فكأن الفرد يجب ان يكون حرا لكي  
يكون حرا !!

واذا كانوا قد ذكروا ان الحرية تنسم من طريق تفهم  
قوانين الطبيعة والمجتمع والنفس ، لكن هذا التفهم - بحكم  
تعريفهم للمعرفة بأنها مشروطة وزمانية ونسبية - مشروط  
وزماني ونسبي ، وكانت الحرية هكذا ايضا ولن يكون هناك  
مقياس موضوعي لتحديد وتعريف ماهية الفعل الحر ..

هذا من جهة ، لكن الحرية ملغاة عندهم من جانب اخر ..  
فالعالم جميع قوانينه موجودة فيه من الاصل .. وكان اي  
فعل انما هو نتيجة ظروف معينة .. فحتى الفعل الحر ان

المناداة بوجوبية وجود ادب واقعي ذي نزعة سياسية اجتماعية .. حقيقة ان انجلز يرى ان الفن يجب ان يكون فنا اولاً ، الا انه ينادي بهذا الادب الواقعي الذي يعكس الواقع ويصور حركة المستقبل .. والمستقبل عنده هو المستقبل الشيوعي بالطبع !! فقد كتب انجلز في رساله الى ف. لاسيل : يخيل الي ان فهمك للدرامية شيء تجريدي للغاية ، شيء ليس واقعياً بما فيه الكفاية بالنسبة لي : فحركة الفلاحين تحتاج الى عناية اشد ..

فكان الدراما عند انجلز تتحدد بالمضمون لا بالشكل اولاً وانجلز لم يدرس ماهية الفن اصلاً وقع في كل هذا .. لان الفن ليس تعبيراً عن حركة الواقع ، بل هو تعبير غير مقنع - هذا اذا كان هذا الواقع واقعاً اصلاً - وأثبتت لواقع الفنان الخاص كما يتراءى كحلماً داخل ذهنه . لقد نقد انجلز رواية « فتاة المدينة » لمارجريت هاركينسن بقوله : تبدو الطبقة العاملة كطبقة سلبية غير قادرة على ان تساعد نفسها ولا تبدي حتى اي محاولة لاثارة الدافع لتساعد نفسها .. وذكر عن بلزك انه تعلم منه اكثر مما تعلم من كل المؤرخين والاقتصاديين ورجال الاحصاء الرسميين .. كان الفن معرفة !! مع ان الفن هو احد الاشكال الفكرية الادنى - بحكم تلبسه بالعاطفة - لاثبات مافي التفكير من لعب !! ..

✱ ✱

وبعد .. اننا لم نناقش المادية التاريخية Historical Materialism لان المادية التاريخية هي تطبيق للمادية الجدلية على المجتمع .. وهي دراسة اقرب للاجتماع منها الى الة اعه ونحن قد نحينا الدراسة العملية عن اهتمامنا ..

وقد تبينا ان هذه الفلسفة التي اقامت نفسها على قانون تناقض الاشياء كانت هي نفسها متناقضة داخل نفسها .. وراينا ان الجانب الفلسفي فيها ضعيف .. وما دام الجانب الفلسفي ضعيفاً في اية نظرية انهارت النظرية من اساسها ..

واذا كانت الماركسية تحل كل تناقض بمركب synthesis جديد ، فما هو المركب الجديد الذي سينشأ بين موقفها هي وذهننا مثلاً ؟ .. لاشيء .. !! وان خير ما نرد به على جدل ماركس المؤمن بالاطروحة thesis والنقيض والمركب هو جدل كيركجورد الوجودي antithesis المؤمن بالاطروحة والنقيض فحسب في حالة شد وجذب ولا مركب ..

واذا كنا قد ناقشنا هنا بكل حدة ، فالحدة مطلوبة مع كل مذهب فلسفي صدر في التاريخ ، شغل الاذهان انشغالا لا يستحقه ، وهذا هو ماسيناله على ايدي الذهن المقرم بلعبة التفكير في كل مذهب فلسفي ظهر في تاريخ البشر ..!

مجاهد عبد المنعم مجاهد

القاهرة

هو الا نتاج ضرورة .. وعلى هذا فهم لم يقرروا ضرورة الحرية ، بل قرروا ضرورة حرية الضرورة ، حريتها فسي ان تكون الضرورة ضرورية !!

ولكن كيف تظهر الحرية ؟ خلال الضرورة .. وكيف تظهر الضرورة ؟ خلال عمليات الصدفة .. هم يؤمنون بوجود الصدق استناداً الى منهجهم المبني على التناقض .. ولكن افتراض وجود عنصر الصدفة يقضي اصلاً على ما في الكون من عالية .. وبالتالي يهدم الضرورة .. ومن ثم يهدم امكانية وجود قوانين وبالتالي ينهار العالم الانطولوجي الذي فرضوه .. بل يقتضي امكانية وجود قوانين حتى لمنهجهم الجدلي ..

ولقد ربطوا الاخلاق بالحرية ، والحرية مرتبطة بالمعرفة ، وعلى هذا فالاخلاق هي الاخرى نسبية ومشروطة وزمانية ولم يبينوا اصلاً كيف نشأ في ذهن اول انسان فكرة الواجب ..

#### ٤ - ليس الفن ضد الواقع ؟!

واذا كانوا لم يبحثوا في منشأ ظهور كلمة الواجب ، بحجة الدراسة الوصفية في مجال الاخلاق ، فقد ارتأوا

